القول المبين في معنى قوله تعالى :

قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين

أ.د. محمود بن يوسف فجّال *

الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، والصلاة والسلام على نبينا محمد خير من عرف الله – تعالى – ووحَّده وعبده . وعلى آله الأطهار ، وصحبه الأخيار .

أما بعد فإني أتكلم عن آية من كتاب الله – تعالى – طال وقوفي عندها كثيرًا . وقد أبحرت في كتب المفسرين من قُدامى ومُحْدَثين فلم أصدر عن معنى أطمئن إليه بيقين .

وقد اهتديت إلى معنى متبعًا فيه منهج تفسير القرآن بالقرآن ، بتوفيق من الله العليم العلَّام ، وهو معنى جدير بالاعتماد ، ولكنني لم أعثر على هذا المعنى في تفسير .

والآية هي قوله – تعالى – : (قلْ إنْ كانَ للرحمنِ ولدٌ فأنَا أولُ العابدين ❖ سبحان رَبِّ السَّماوَاتِ وَالأرضِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يصفون [1] .

وقد قال « الأزهري » [2] : « هذه آية مشكلة » .

وقال « الزمخشري » [3] : « وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد ، المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه » .

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور [4] : « نظم هذه الآية دقيق ومُعْضِل ، وتحته معان جَمَّة » .

* مستشار وزير الأوقاف السعودي– عضو هيئة التدريس في جامعة المعرفة العالمية – الرياض.

أقـــول :

يدور الكلام في رحاب هذه الآية الكريمة حول محورين :

المحور الأول : دلالة (إن) .

المحور الثاني : دلالة (فأنا أول العابدين) .

المحور الأول : دلالة (إن) . قد اختَلف فيها أهلُ العلم على قولين :

القول الأول : إنها شرطية .

والقول الثاني : إنها نافية .

المحور الثاني : فمَنْ قال : إنها شرطية اختلفوا في المراد بقوله : (فأنا أول العابدين).

قال بعضهم : فأنا أول العابدين لذلك الولد .

وقال بعضهم : فأنا أول العابدين لله على فرض أن له ولدًا .

ومَنْ قال : إن (إنْ) في الآية نافية . فقد اختلفوا في معنى : (فأنا أول العابدين) على أوجه :

الأول : أن المعنى ما كان لله ولد فأنا أول العابدين لله ، المنزِّهين له عن الولد ، وعن كل ما لا يليق بكماله وجلاله [5] .

الثاني : لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين [6] .

الثالث : أنا أول الموحدين لله – عز وجل – من أهل مكة . وأول من عبده بالتوحيد مخالفاً لكم [7] .

الرابع : أن المعنى الآنفين [8] المستنكفين من ذلك . يعني القول الباطل المفترى على ربنا الذي هو ادعاء الولد له .

تقول العرب : عبِد يَعْبَدُ ، فهو عَبِد ، على القياس . وعابد سماعاً ، إذا اشتدت أنفته واستنكافه وغضبه . ومنه قول « الفرزدق » :

أولئك قومي إنْ هجوني هَجَوْتُهم وأعْبُدُ أن أهجو كليباً بدارِم

فقوله : وأعبُدُ ، يعني آنف وأستنكف . ومنه قول الآخر :

متى ما يَشَأْ ذو الوُدِّ يَصْرِمْ خليلَه ويَعْبَدْ عليه لامِحالةَ ظالما

وفي قصة « عثمان بن عفان » – رضي الله عنه – أنه جيء بامرأة من جهينة تَزَوَّجَتْ فولدت لستة أشهر ، فبعث بها عثمان لتُرجم ، فدخل عليه « عليُّ بن أبي طالب » –

رضي الله عنه – فقال : إن الله يقول في كتابه : (وحمله وفصالُهُ ثلاثون شهرًا) [9] .

وقال : (وفِصالُهُ في عامين) [10] قال : فو الله ما عَبِدَ عثمان أن بَعَثَ إليها تُرَدُّ .

قال يونس بن عبد الأعلى: قال ابنُ وهب : ما عَبِد ما اسْتَنْكَفَ [11] من الرجوع إلى الحق .

قال الجوهري [12] : وقال أبو عمرو : قوله تعالى : (فَأَنَا أَوَّلُ العَابِدِين) من الأَنَفِ والغَضَب .

قال الهروي : قال تعالى : (فأنا أول العابدين) قيل : هو من عَبِدَ يعبَدُ ، أي : من الآنفين . وقال ابن عرفة : إنما يقال : عَبِدَ يَعْبَدُ فهو عَبِدٌ ، وقلما يقال : عابد ، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذ [13] .

قال السمين [14] معقباً على ذلك : « فتخريج مَنْ قال : إن العابدين بمعنى الآنفين لا يَصِحُّ » .

قال الشوكاني [15] : « وقيل : معنى العابدين الآنفين من العبادة . وهو تكلُّفٌ لا مُلْجِئ إليه » .

الخامس : أن المعنى (فأنا أول العابدين) أي : الجاحدين النافين أن يكون لله ولد سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا .

قال أبو عبيدة : والعرب تقول : عبدني حقي ، أي : جحدني [16] .

السادس : أنا أول المؤمنين بالله – عز وجل – في تكذيبكم من نسبة الولد لله – تعالى – قاله مجاهد [17] .

السابع : أي : الغضاب الآنفين [18] .

قال أبو حاتم : العَبِد – بكسر الباء – : الشديد الغضب [19] .

وقال الشيخ محمد الأمين (20) : الأول أقربها .

بسط القول في معنى مَنْ قال بشرطية « إن » :

كون (إن) شرطية على سبيل الافتراض ، أي : قل يا محمد : إن ثبت لله ولد فأنا أول من يعبدُ ولدَه . ولكن يستحيل أن يكون له ولد ، وهو كما تقول لمن تناظِرُه : إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده . وهذا مبالغ في الاستبعاد ، أي : لا سبيل إلى اعتقاده . والمعنى على ذلك : فأنا أول العابدين لذلك الولد ؛ لأن تعظيمَ الولد تعظيم للوالد [21] .

قال الألوسي [22] : « وجه الملازمة أنه - عليه الصلاة والسلام - أعلم الناس بشؤونه تعالى ، وبما يجوز عليه ، وبما لا يجوز ، وأحرصُهم على مراعاة حقوقه، وما توجبه من تعظيم ولده – سبحانه – فإنَّ حقَّ الوالدِ على شخص يوجب عليه تعظيم ولده ، لما أن تعظيم الولد تعظيم الوالد .

فالمعنى : إن كان للرحمن ولد وصحَّ ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه ، وحجة واضحة تدلون بها فأنا أول من يُعَظِّم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته ، والانقياد له ، كما يُعَظِّمُ الرجل ولد الملك لعظم أبيه [23] ، وهذا نفي لكينونة ولد له - سبحانه - على أبلغ وجه وهو الطريق البرهانيّ ، والمذهب الكلاميّ ، فإنه في الحقيقة قياس استثنائي استدل فيه بنفي اللازم البين انتفاؤه ، وهو عبادته ﷺ للولد على نفي الملزوم وهو كينونة الولد له - سبحانه - وذلك نظير قوله : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) ، لكنه جيء بـ (إن) دون (لو) لجعل ما في حيِّزها بمنزلة مالا قطع بعدمه على طريق المساهلة ، وإرخاء العِنان للتبكيت والإفحام .

وفي الكشف : أن في الآية مبالغةً من حيث إنه جعل الممكن في نفسه - أعني عبادتَه ، عليه الصلاة والسلام ، لما يدعونه ولدًا - محالًا ، فهو نفيٌ لعبادة الولد على أبلغ وجه حيث جُعِلَ مسببًا عن محال ، ثم نفيٌ للولد كذلك من طريق آخر ، وهو أنه لما لم يعبد ﷺ الولد - مع كونه أولى بعبادته لو كان - دَلَّ على نفيه .

ونحوها ذكر في الآية مروياً عن قتادة والسدي والطبري » ..

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور [24] :

« الحاصل أن هذا الاستدلال مركب من قضية شرطية أولُ جُزْأيْها وهو المقدَّم باطل ، وثانيهما وهو التالي باطل أيضاً ؛ لأن بطلان التالي لازم لبطلان المقدم ..

والاستدلال هنا ببطلان التالي على بطلان المقدم ؛ لأن كون النبي ﷺ عابدًا لمزعومِ بنوَّتِه لله أمرٌ منتفٍ بالمشاهدة ، فإنه لم يزل ناهيًا إيَّاهم عن ذلك .

وهذا على وزان الاستدلال في قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) إلاَّ أن تلك جُعل شرطُها بأداة صريحة في الامتناع ، وهذه جعل شرطها بأداة غير صريحة في الامتناع » .

ترجيح « ابن جرير » شرطية « إن » في الآية :

قال ابن جرير [25] : « وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قولُ مَنْ قال : معنى (إنْ) الشرطُ الذي يقتضي الجزاءَ . على ما ذكرناه عن السدِّي ؛ وذلك أنَّ (إنْ) لا تَعْدو في هذا الموضع أحدَ معنيين : إما أن يكون الحرفُ الذي هو بمعنى الشرط الذي يطلُبُ الجزاءَ ، أو تكونَ بمعنى الجَحْدِ ، وهي إذا وُجِّهَتْ إلى الجَحْدِ لم يكن للكلام كبيرُ معنىً ، لأنه يصيرُ بمعنى : قل : ما كان للرحمن ولدٌ . وإذا صار بذلك المعنى أوهمَ أهلَ الجهل مِنْ أهل الشرك بالله أنه إنما نَفَى بذلك عن الله - عز وجل - أن يكون كان له ولدٌ قبل بعض الأوقات ، ثم حَدَثَ له الولدُ بعد أن لم يكن ...

فالذي هو أشبهُ المعنيين بها الشرطُ .. ومعنى الكلام : قل يا محمدُ لمشركي قومِك الزاعمين أنَّ الملائكةَ بناتُ الله : إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول عابديه بذلك منكم ، ولكنه لا ولدَ له ، فأنا أعبُدُه بأنه لا ولدَ له ، ولا ينبغي أن يكونَ له .

وإذا وُجِّهَ الكلامُ إلى ما قلنا من هذا الوجهِ لم يكن على وجْهِ الشَّكِّ ، ولكن على وَجْهِ الإلطافِ في الكلام ، وحُسْنِ الخطاب ، كما قال الله - جلَّ ثناؤه : (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) [26] . وقد عَلِمَ أن الحقَّ معه ، و أن مخالفيه في الضلال المبين ».

وقال القرطبي [27] : « قال المهدوي : فـ (إنْ) على هذه الأقوال للشرط ، وهو الأجود . وهو اختيار الطبري » .

بيان مَنْ قال : إنّ « إنْ » نافية :

إذا كانت (إنْ) نافية فيكون التقدير : ما كان للرحمن ولد ، و لا ينبغي أن يكون ذلك.

قال الألوسي [28] : « روي عن الحسن ، وزيد بن أسلم ، وابنه ، وزهير بن محمد، وهو رواية عن ابن عباس [29] ، وقتادة ، والسدي أيضاً أن (إنْ) نافية بمعنى (ما) .

أي : ما كان للرحمن ولد فأنا أول مَنْ قال ذلك وعَبَدَ ووحَّدَ .

و(كان) عليه للاستمرار ، والمقصود استمرار النفي ، لا نفي الاستمرار .

والفاء للسببية .

وتُعُقِّبَ بأنه خلاف الظاهر مع خفاء وجه السببية أو حسنها .

وزعم مكيٌّ أنه لا يجوز ، لإيهامه نفي الولد فيما مضى .

قال ابن عطية [30] : « وهنا الوقف على هذا التأويل (ما كان للرحمن ولد) ثم يبتدئ قوله : (فأنا أول العابدين) . قاله أبو حاتم » [31] .

قال العز بن عبد السلام [32] : « أي : ما كان للرحمن ولد ، ثم استأنف فقال : وأنا أول العابدين ، أي : الموحدين من أهل مكة » .

والوقف على (ولد) عند من قال : إنَّ (إنْ) نافية . وعلى (العابدين) عند من قال : إنها شرطية [33] .

بيان مَنْ ردَّ القول بشرطية « إن » واختيار أن تكون نافية :

ردَّ الشيخ محمد الأمين [34] ما اختاره « ابن جرير » في أنَّ (إنْ) شرطية بقوله : « والذي يظهر لي في معنى هذه الآية أنه يتعين المصيرُ إلى القول بأنَّ (إنْ) نافية .
وأن القول بكونها شرطية لا يمكن أن يصح له معنًى بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن . وإنْ قال به جماعةٌ من أجلاء العلماء » .

الأدلة التي اعتمد عليها الشيخ محمد الأمين في حتمية كون « إنْ » نافية :

قال الشيخ محمد الأمين[35] : « و إنما اخترنا أنَّ (إنْ) هي النافية لا الشرطية ، وقلنا : إن المصير إلى ذلك متعيّن لأربعة أمور :

الأمر الأول : أن هذا القول جارٍ على الأسلوب العربي جريانًا واضحًا ، لا إشكال فيه . فكون (إن كان) بمعنى (ما كان) كثير في القرآن ، وفي كلام العرب.
كقوله تعالى :(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً) [36] .

الأمر الثاني : أن تنزيه الله عن الولد بالعبارات التي لا إيهام فيها هو الذي جاءت به الآيات الكثيرة .

كقوله تعالى : (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) [37] .

وقوله تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرحمنُ وَلَدًا ❖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) [38] .

وقوله سبحانه : (وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) [39] .

وقوله سبحانه : (أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ❖ وَلَدَ اللّه وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) [40] .

وقوله تعالى : (لم يلد ولم يولد) .

الأمر الثالث : هو أن القول بأن (إن) شرطية لا يمكن أن يصح معنى في اللغة العربية إلا معنى محذور ، لا يجوز القول به بحال ، وكتاب الله – جل وعلا - يجب تنزيهه عن حمله على معانٍ محذورة لا يجوز القول بها .

إيضاح ذلك :

قوله : (فأنا أول العابدين) جزاء الشرط لا معنى لصدقه البتة ؛ لعدم صحة الربط بين الشرط والجزاء ، فلو أزيلت أداة الربط بين طرفيها لكانت في غاية الصدق مع كذب طرفيها معاً أو أحدهما .

فمثال كذبهما معاً مع صدقها قوله تعالى : (لَوْ كَانَ فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا) فلو أزيلت أداة الربط من طرفيها ، وهي (لو) و (اللام) صار الطرف الأول (كان فيهما آلهة إلاَّ الله) وصار الطرف الثاني (فسدتا) [41] .

مثال صدقها مع كذب أحدهما قولك : (لو كان زيد في السماء ما نجا من الموت).

هذه الشرطية اتفاقية لا لزومية ، ولا دخل للاتفاقيات في هذا المبحث [42] .

فإذا حققت هذا فاعلم أن الآية على القول بأنها شرط وجزاء لا يصح الربط بين طرفيها البتة بحال إلا على وجه محذور .

إيضاح ذلك :

أن مصب الصدق والكذب في الشرطيات إنما هو الجزاء ، والشرط قيد في ذلك .

فمعنى الآية عليه باطل ، بل هو كفر ؛ لأن معناه أنّ كونه أولَ العابدين يشترط فيه أن يكون للرحمن ولد ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ؛ لأن مفهوم الشرط أنه إن لم يكن له ولد لم يكن أول العابدين . وهذا فاسد ...

وبه تعلم أن الشرط المزعوم في قوله : (إن كان للرحمن ولد) إنما يعلق به محال لاستحالة كون الرحمن ذا ولد .

ومعلوم أن المحال لا يعلق عليه إلا المحال [43] ...

[لأن كل قضية شرطها محال لا يطرد صدقُها إلا إذا كان جزاؤها محالاً . ومدار صدق الشرطية على صحة الربط بين شرطها وجزائها ، فهي صادقة ولو كذب طرفاها عند إزالة الربط] .

فالآية على أنَّ (إنْ) شرطية لا تمكن صحة الربط بين شرطها وجزائها البتة ؛ لأن الربط بين المعبود وبين كونه والداً أو ولداً لا يصح بحال .

فالآية (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ) الآية [44] .

ربط قوله (فإن كنت في شك) بقوله (فاسأل الذين يقرؤون الكتاب) وهو ربط صحيح لا إشكال فيه ؛ لأن الشاك في الأمر شأنه أن يسأل العالم به عنه .

فهي قضية صادقة مع أن شرطها وجزاءها كلاهما باطل بانفراده فهي كقوله تعالى : (لو كان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفسدتا) .

فهي شرطية صادقة لصحة الربط بين طرفيها ، وإن كان الطرفان باطلين عند إزالة الربط .

ولذا جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « لا أشك ولا أسأل أهل الكتاب » [45] فَنَفَى الطرفين مع أن الربط صحيح ، ولا يمكن أن ينفي ﷺ هو ولا غيرُه الطرفين في الآية الأخرى ، فلا يقول هو ولا غيرُه : ليس له ولد ولا أعبده [46] .

رد الشيخ محمد الأمين تأويل الزمخشري في الآية :

قال الزمخشري [47] : « (قل إن كان للرحمن ولد) وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه ، وحجة واضحة تدلون بها (فأنا أول) من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له ، كما يعظِّم الرجلُ ولدَ الملك لتعظيم أبيه ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه ، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القَدَم في باب التوحيد ، وذلك أنه علَّق العبادة بكينونة الولد ، وهي محال في نفسها فكان المعلَّق به محالاً مثلها ، فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة وفي معنى نفيها على أبلغ الوجوه وأقواها .. » .

قال الشيخ محمد الأمين [48] في ردّ قول الزمخشري : « كلامُه هذا لا يخفى بطلانُه على عاقل ، لأنه على فرض صحة نسبة الولد إليه ، وقيام البرهان الصحيح، والحجة الواضحة على أنه له ولد فلا شك أن ذلك يقتضي أن ذلك الولد لا يستحق العبادة

بحال ، ولو كان في ذلك تعظيم لأبيه ، لأن أباه مثلُه في عدم استحقاق العبادة . والكفر بعبادة كل والد وكل مولود شرطٌ في إيمان كل موحِّد . فمن أيّ وجه يكون هذا الكلام صحيحًا ؟ » .

ثم قال [49] : « ضَرَبَ الزمخشري للآية المثل بقصة (سعيد بن جبير) مع (الحجاج) حين قال لسعيد : لأبدلنك بالدنيا نارًا تلظى .

قال سعيد للحجاج : لو علمتُ أن ذلك إليك ما عبدت إلهًا غيرك .

فهو يدل على أنه علق المحال على المحال .

ولو كان غير متناقض للمعنى الذي مثَّل له به الزمخشري لقال : لو علمت أن ذلك إليك لكنت أولَ العابدين لله .

فقوله : (لو علمت أن ذلك إليك) في معنى (إن كان للرحمن ولد) فنسبة الولد والشريك إليه معناهما في الاستحالة وادعاء النقص واحد .

فلو كان سعيد يفهم الآية كفهمك الباطل لقال : لو علمت أن ذلك إليك لكنت أول العابدين لله ، ولكنه لم يقل هذا ؛ لأنه ليس له معنى صحيح يجوز المصير إليه » .

الأمر الرابع : « دلالة استقراء القرآن العظيم أن الله – تعالى – إذا أراد أن يفرض المستحيل ليبين الحق بفرضه علَّقه أوّلاً بالأداة التي تدل على عدم وجوده ، وهي لفظة (لو) ، ولم يعلق عليه البتة إلا محالاً مثله . كقوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) .

وقوله تعالى : (لَوْ أَرَادَ الله أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) [50] .

وقوله تعالى : (لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا) [51] » .

ثم قال [52] : « ومما يوضح هذا المعنى الذي ذكرناه المحاورة التي ذكرها جماعة من المفسرين التي وقعت بين النضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة ، وهي وإن كانت أسانيدها غيرَ قائمة ، فإن معناها اللغوي صحيح .

وهي : أن النضر بن الحارث كان يقول : الملائكةُ بناتُ الله فأنزل الله قوله تعالى : (قل إن كان للرحمن ولد) الآيةَ . فقال النضر للوليد بن المغيرة : ألا ترى أنه قد صَدَّقني ؟ .

فقال الوليد : لا ما صدقك ، ولكنه يقول : ما كان للرحمن ولد فأنا أولُ العابدين ، أي : الموحدين من أهل مكة المنزهين له عن الولد .

فمحاورة هذين الكافرين العالمين بالعربية مطابقة لما قررنا » .

ثم قال : « وبجميع ما ذكرنا يتضح أنَّ (إنْ) في الآية نافية . وذلك مروي عن ابن عباس ، والحسن ، والسّدي ، وقتادة ، وابن زيد ، وزهير بن محمد وغيرهم » (53) .

الرد على مَنْ قال : يلزم من القول بأن « إنْ » نافية إيهام ما لا يجوز في حق الله :

قال الشيخ محمد الأمين (54) : « اعلم أنَّ ما قاله ابنُ جرير وغيرُ واحد من أن القول بأنَّ (إنْ) نافيةٌ يلزمه إيهام المحذور الذي لا يجوز في حق الله .

قالوا : لأنه إن كان المعنى (ما كان لله ولد) فإنه لا يدل على نفي الولد إلا في الماضي ، فللكفار أن يقولوا : إذا صدقت لم يكن له في الماضي ولد ، ولكن الولد طرأ عليه بعد ذلك لما صاهر الجنَّ وولدت له بناته التي هي الملائكة .

وأن هذا المحذور يمنع من الحمل على النفي لاشكَّ في عدم صحته لدلالة الآيات القرآنية بكثرة على أن هذا الإيهام لا أثر له . ولو كان له أثر لما كان الله يمدح نفسه بالثناء عليه بلفظة (كان) الدالة على خصوص الزمن الماضي في نحو قوله تعالى : (وكان الله عزيزاً حكيماً) و (كان الله عليماً حكيماً) و (وكان الله غفوراً رحيماً) و (وكان الله على كل شيء قديراً) (إن الله كان عليّاً كبيراً) .

فإن معنى كل تلك الآيات أنه كان ولم يزل » .

ومثله : (وما كان ربك نسيًّا) (وما كنت متخذ المضلين عضدًا) (وما كان معه من إله) (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) فإن معنى كل تلك الآيات أنه كان ولم يزل .. (55)

قال السمين (56) : « قيل : (إنْ) نافيةٌ ، أي : ما كان ، ثم أخبر بقوله : (فأنا أولُ العابدين) وتكون الفاء سببية .

ومنع مكي أن تكون نافيةً قال : لأنه يُوهمُ أنَّك إنما نَفَيْتَ عن الله الولدَ فيما مضى دون ما هو آتٍ ، وهذا محال (57) .

وقد ردَّ الناسُ على مكيّ ، وقالوا : (كان) قد تَدُلُّ على الدوام ، كقوله : (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) إلى ما لا يُحْصَى . والصحيحُ من مذاهب النحاة أنها لا تدُلُّ على الانقطاع » .

أقول : رجعت إلى « مشكل إعراب القرآن » [58] لمكي فلم أجد ما نسب إليه من منع أن تكون (إنْ) نافية بل وجدت فيه إثبات ذلك ، وهذا نصه :

« (إنْ) بمعنى (ما) والكلام على ظاهره ، والعابدين من العبادة .

وقيل : (إنْ) للشرط ، ويكون معنى (العابدين) الجاحدين لقولكم : إنَّ له ولداً » .

ثم يختم الشيخ محمد الأمين [59] هذه المسألةَ بقوله : « والحاصل أن الكفار لم يُقِرُّوا أن الله منزه عن الولد لا في الماضي ولا في الحال ، ولا في الاستقبال » .

كما أنهى الشيخ محمد الأمين [60] بحثه في الآية بقوله :

« والحاصل أنَّ كونَ معنى (إن) في الآية الكريمة هو النفي لا إشكال فيه ولا محذور ولا إيهام ، وأن الآيات القرآنية تشهد له لكثرة الآيات المطابقة لهذا المعنى في القرآن .

وأما كون معنى الآية الشرط والجزاء فلا يصح له معنى غير محذور في اللغة ، وليس له في كتاب الله نظير » .

ثم ختم بحثه [61] بقوله منصفاً : « هذا ما ظهر لنا في الآية الكريمة ، ولا شك أنه لا محذور فيه ولا غرر ، ولا إيهام ، والعلم عند الله » .

هذا تلخيص وبيان لما قاله الشيخ محمد الأمين في الآية جازمًا بأنَّ (إنْ) نافيةٌ.

ما ترجح عندي في معنى الآية :

شَجَرَ بين المفسرين جدال طويل في تفسير هذه الآية الكريمة .

فذكرتُ أقوالهم بإجمال ، وضربتُ صفحًا عن أقوال أخرى لما فيها من التمحُّل والتكلُّف الذي لا يليق بالقرآن .

فقد اختلفوا في إعراب (إنْ) فمال فريق منهم إلى أنها شرطية ، كقتادة ، والسُّدي ، ومجاهد ، والطبري ، والمهدوي . ومن المحدَثين الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

ومال فريق آخر إلى أنها نافيةٌ ، كالحسن ، وزيد بن أسلم ، وابنه ، وزهير بن محمد ، وهو رواية عن ابن عباس ، وقتادة ، والسدي . ومن المحدَثين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

أرى أن نقطة الخلاف تكمن في دلالة (إنْ) من جهة فَهْمِهِمْ معنى (العابدين) على الأقوال الآتية :

أول المنزِّهين لله ، وأول الشاهدِين بأنه ليس للرحمن ولد . وأول الموحدين لله.

وأول الآنفين الجاحدين النافين للولد ، وأول الغضاب . وأول المؤمنين بالله والمكذبين من نسبة الولد لله .

وصار كلٌّ منهم يرجِّحُ قولاً ويردّ آخر ، وبعضهم يجزم بمعنًى ويرفض معنىً آخر . مع اعترافهم بأن القائلين بذلك أئمة أجلاء .

وأنا حِرْتُ بين أقوالهم ، وعجزت عن فهم هذا الأسلوب الشريف الرائع ، واستعصى عليّ فهمٌ أركن إليه من هذه الأقوال .

فدعوتُ اللهَ – عز وجل – العليّ العليم أن يفقهني في معنى هذه الآية فانقدح إلى خاطري أن الآيات القرآنية هي أشعة يلقي بعضها ضوءاً على بعض فيبرز المعنى واضحاً صحيحاً .

وهذا معنى قولهم : « إن أصحَّ الطرق في التفسير أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن [62] .. » إلخ .

وهذا منهج بدأ به رسول الله ﷺ . فقد روى الشيخان [63] : لما نَزَلَتْ (الذين آمنوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ) [64] فقالوا : يا رسول الله أيُّنا لا يَظْلِمُ نفسَه ؟ قال ﷺ : ليس ذلك إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه : (يا بُنَيَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم) [65] . وفي رواية لمسلم : « ليس هو كما تظنون » .

وبعد ذلك انطلقت أقرأ قوله – سبحانه :(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [66].

وكان مما أثر عن أئمة التفسير في معنى (لِيعبدون) : ليعرفون ، كابن كثير [67] والعز بن عبد السلام [68] عن عبد الملك بن جُرَيْج ، والألوسي (69) ، ومحمد الأمين [70] عن مجاهد . وغيرهم .

قال الألوسي [71] : « قولهم (ليعرفون) هو مجاز مرسل من إطلاق اسم السبب على المسبب ، ولعل السرَّ فيه التنبيهُ على أن المعتبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته – تعالى – لا ما يحصل بغيرها ، كمعرفة الفلاسفة » .

لذا فإنني أقول – مستعيناً بالله سبحانه – : أميل إلى صحة ما أفاده تأويل مَنْ قال بجواز الوجهين معاً في (إنْ) ، بناءً على أن يكون معنى (أولُ العابدين) (أولَ العارفين) ؛ لأن العبادة الحقّة تثمر المعرفة بالله ، عز وجل .

فالعارفون بالله – تعالى – هم الذين يعبدونه وهم يعلمون قدره ، ويعترفون بتقصيرهم مهما عبدوه ، وأنهم عاجزون عن عبادته العبادة الحقة ، ومَنْ أولى بذلك من

النبيِّ ﷺ فهو أعلم الناس بشؤون الله – عز وجل – وبما يجوز له ، وبما لا يجوز له .

وخبرُه ﷺ لا يحتاج إلى دليل ؛ لأنه هو الدليل .

فحينما قال له ربُّ العالمين : (قل : إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) قال : (أنا أول العابدين) بمعنى أنا أول العارفين ، فهو يقول ذلك في مقام التحدي لما يزعمونه ، والتحدث بنعم الله – تعالى – عليه ، وفي كونه رسولَ الله ﷺ المبلغ عن ربِّه .

فكأنه يقول : أنا خبري هو الخبر ، وكلامي هو الكلام .

كما قال الراجز :

أنا أبو النجم وشعري شعري .

قال تعالى : (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) (72) .

فهو ﷺ المختص بتبليغ الرسالة عن رب العالمين ، وهو الذي له الحق أن يقرّر ويخبر : إن كان للرحمن ولد فأنا أول العالِمين بذلك لا أنتم ، لأنه ﷺ هو المسؤول ، وهو الذي عنده الخبر اليقين . وهذا شأن لا يُعرف إلا من جهته ، ومن جهة الرسل الكرام .

قال ﷺ : « إنَّ أتقاكم وأعلمَكم بالله أنا » (73) .

وفي رواية الأصيلي للبخاري : « أعرفكم » (74) .

فإذا نوقشت مسألة معضلة في مجتمعٍ ما فالذي يتصدى للكلام فيها هم ذوو الاختصاص .

كما أنَّ الطبيب الحاذق يُسَلَّمُ له في تشخيص المرض وإعطاء الدواء ، ولا يصح أن يتدخل غيرُه في اختصاصه . وهكذا الشأن في كل العلوم .

قال تعالى : (فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) (75) .

فالنبي ﷺ هنا كأنه يقول : أنا المسؤول عن هذا الشأن لا غيري .

فقال النبي ﷺ : (أنا) لأن الله – سبحانه – أمره بقولها حينما قال له : (قل) أي : يا محمد ، وهو عبد الله ورسوله ، وما كان منه إلا أن امتثل أمر الله ، سبحانه .

وقد قال ﷺ : «أنا أمينُ مَنْ في السماء ويأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً» (76) .

وقال – سبحانه – : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) (77) .

والرسـول ﷺ يخـبر بـأن الله – عـز وجـل – لا ولـد لـه ، بـل في نسـبة الولـد لله – تعالى – إيذاء له .

قـال ﷺ : « مـا أحـدٌ أصـبرُ علـى أذىً سمعَـه مـن اللهِ . يَـدَّعون لـه الولـد ثـم يعـافيهم ويـرزقُهم » (78) .

وخبره ﷺ نابع من معرفته اليقينية .

ومما يستأنس به إلى ما ذهبتُ إليه أنَّ النبي ﷺ هـو المختص بـالعلم في معرفة الله تعالى :

1- قوله تعالى : (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ولا لآبائهم) (79) لقد نفى الله – عز وجل – عنهم وعن آبائهم العلم أصلًا ثم عقَّب ذلك بقوله : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) (80) أي : عظمت مقالتُهم هذه في الكفر والافتراء لما فيها من نسبته – سبحانه – إلى ما لا يليق بجلاله .

2- عموم قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم) (81) فقد حثَّ الله – سبحانه – على التقوى ؛ لأن التقوى شاملةٌ لما أمر الله به ولما نهى الله عنه، فالعبادة من التقوى ، والتقوى لها ثمار ، ومن ثمارها العلمُ النافع الذي يمنحه لعباده المتقين ، والرسول ﷺ إمام المتقين وأوَّل العالِمين والعارفين . والله سبحانه وتعالى أعلم .

كما أنني أرى أن أسلوبَ آية الزخرف التي نحن بصدد الكلام عليها أسلوبُ توضيح وبيان وردّ وتجهيل للمعاندين وتبكيت لهم .

كما في قوله – سبحانه – في سورة يونس : (قَالُواْ اتَّخَذَ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (82) .

فكان الرد على المشركين بثلاثة أجوبة :

الجواب الأول : (سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ)

الجواب الثاني : (إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا)

الجواب الثالث : (أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)

وفي آية الزخرف الرد على المشركين بجوابين :

الجواب الأول : (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) أي : أول العارفين فيما يجوز لله سبحانه وما لا يجوز.

والجواب الثاني : (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

توجيه (إنْ) في الآية على أنها شرطية اتفاقية :

(إن) الشرطية الاتفاقية هي التي لا ربط بين مقدمها وتاليها ، أي : لا علاقة بينهما أصلًا ، لا عقلًا ولا شرعًا ولا عادة .

وهي التي يحكم فيها بصدق التالي على تقدير صدق المقدم بمجرد الاتفاق ، لا لعلاقة بينهما ، بل بمجرد الصدفة والاتفاق .

مثال ذلك : (إن كان زيد في السماء لم ينجُ من الموت) .

هذه قضيةٌ باطلةُ الشرطِ صحيحة الجزاء ؛ فالشرط الذي هو كونه في السماء باطل ، والجزاء الذي هو كونه لم ينج من الموت صحيح .

وإنما صح هذا لكون هذه الشرطية اتفاقية ، ولا ارتباط بين طرفيها أصلاً ، وإنما هو في اللفظ فقط . فكون زيد في السماء لا علاقة له بعدم نجاته من الموت أصلًا [83] .

مثال آخر قوله : « لو لم يخف الله لم يعصه » [84] .

هذه قضية شرطية اتفاقية ، لا ارتباط بين طرفيها ، فليس أحدهما سببًا في الآخر ، ولا ملزوماً ولا لازماً له ؛ لأن سبب انتفاء العصيان ليس هو عدم الخوف الذي هو الشرط ، بل هو شيء آخر غير مذكور ، وهو تعظيم الله - جل وعلا - ومحبته المانعة من معصيته [85] .

مثال القضية الشرطية الاتفاقية من القرآن الكريم قوله تعالى : (وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً) [86] لأن دعاءه إياهم إلى الهدى لا علاقة بينه وبين عدم اهتدائهم .

وقوله تعالى : (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي) [87] لأن كون البحر مدادًا لها لا علاقة له بنفادها ولا عدمه [88] .

وأنا أرى أن الآية التي نحن في رحابها شرطية اتفاقية على المعنى الذي ذكرته وهو (فأنا أول العارفين) . فكونه ﷺ أول العابدين بمعنى أول العارفين غير مسبب عن الشرط ولا علاقة بينهما أصلاً . فالشرط المقدم إن كان للرحمن ولد لا علاقة بينه وبين كونه ﷺ أول العارفين . والله أعلم .

توجيه (إنْ) في الآية على أنها نافية :

وأرى صحة كون (إنْ) نافية على أن (العابدين) بمعنى العارفين أيضًا .

ويكون المعنى - والله أعلم - : ما كان للرحمن ولد فأنا أول العارفين بذلك ؛ لأنني المبلغ عن رب العالمين ، سبحانه وتعالى .

وهنا لا بدّ من تقدير محذوف بعد الفاء ، ليتضح المعنى وهو : ما كان للرحمن ولدٌ، فإن زعمتم أن له ولدًا فأنا أول العارفين لا أنتم ، ولا يحق لكم أن تفتروا على الله - تعالى- ، وعليكم أن تأخذوا عن الذي لا ينطق عن الهوى .

وأرجح أن تكون (إن) شرطية اتفاقية ؛ لأن علماء العربية قرروا « أن الحذف خلافُ الأصل ، وعليه ينبني فرعان :

أحدهما : أنه إذا دار الأمر بين الحذف وعدمه كان الحمل على عدمه أوْلَى ، لأن الأصل عدم التغيير .

والثاني : إذا دار الأمر بين قلة المحذوف وكثرته كان الحمل على قلته أولى» [89] .

ضابط ورود « إن » نافية في القرآن الكريم :

قال « ابن هشام » [90] : « تكون (إنْ) نافية وتدخل على الجملة الاسمية ، نحو: (إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ) [91] (إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ) [93] .

ومن ذلك : (وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) [94] أي : وما أحدٌ من أهل الكتابِ إلَّا ليؤمِنَنَّ به ، فحذف المبتدأ ، وبقيت صفته .

وعلى الجملة الفعلية نحو: (إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى) [95] (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً) [96] (وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً) [97] (إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً) [96] .

وقولُ بعضهم: لا تأتي (إنِ) النافية إلا وبعدها (إلَّا) كهذه الآيات ، أو (لمَّا) المشدَّدة التي بمعناها كقراءة بعض السبعة [98] : (إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ)[99] بتشديد الميم ، أي : ما كل نفس إلا عليها حافظ - مردودٌ [100] بقوله تعالى : (إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا) [101].

(قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ) [102] (وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ) [103] .

وخرَّج جماعةٌ على (إنِ) النافية قولَه تعالى : (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ) [104] . وعلى هذا فالوقف هنا ... » اهـ .

قال شيخ زاده [105] : « لا وجه لكون (إنْ) نافيةً بمعنى (ما كان) لأن الإخبار بقوله: (فأنا أول العابدين) بالفاء السببية الواقعة بعد كلمة (إنْ) يستدعي أن يكون ما بعد الفاء مرتبًا على ما قبلها بأن تكون للشرط والجزاء . فجُعِلَ (إنْ) في مثل هذا الموضع نافيةً خلافُ الظاهر » .

التعبير بـ (أوّل) في الآية :

(أول) اسم تفضيل مضاف إلى (العابدين) .

قال الرضي [106] : « اسم التفضيل هو المبني على (أفعل) لزيادة صاحبه على غيره في الفعل المشتق منه » .

ثم قال [107]: « اسم التفضيل يقصد به الزيادة على من أضيف إليه ، ويشترط أن يكون منهم ، نحو : زيد أفضل الناس » .

وذكر الصرفيون أنه يشترط فيما يشتق منه اسم التفضيل ثمانية شروط ، منها أن يكون فعلاً .

قال الأستاذ عبد الله أمين [108]: « اختلف العلماء في لفظ (أوّل) اختلافًا كبيرًا . والقول ما قاله (ابن بري) أنه (أفْعَل) من (وَوَل) [109] فهو من باب (دَدَنٍ) مما فاؤه وعينه من حرف واحد فلا شذوذ .

وإذا جعلته صفة لم تصرفه ، تقول : لقيته عامًا أوَّلَ .

وإذا لم تجعله صفة صرفته . تقول : ما رأيت له أوَّلًا ولا آخرًا ، أي : قديمًا ولا حديثًا » .

قال الرضي [110] : « أول كأسبق ، معنىً وتصريفًا واستعمالًا .

لَمَّا لم يكن لفظ (أول) مشتقًّا من شيء مستعمل على القول الصحيح ، لا مما استعمل منه فعل كأحسن ، ولا مما استعمل منه اسم كأحنك خفي فيه معنى الوصفية ؛ إذ هي إنما تظهر باعتبار المشتقّ منه ، واتصافِ ذلك المشتقّ به كأعلم ، أي : ذو عِلْم أكثر من غيره ، وأحنك ، أي : ذو حنك أشد من حنك غيره . وإنما تظهر وصفية (أوَّل) بسبب تأويله بالمشتق ، وهو أسبق » .

فيكون معنى (أول العابدين) (أسبق العابدين) وعلى ذلك يكون المعنى :

المعرفة بالله – عز وجل – درجات ، وبعض الناس أفضل من بعض ، وأن النبي ﷺ منها في أعلى الدرجات . والله أعلم .

إيثار استعمال اسم (الرحمن) في الآية :

شدَّ انتباهي اسم (الرحمن) في الآية ، وهي أن الله آثر استعمال اسم (الرحمن) عن سائر أسمائه الحسنى بجانب ذكر الولد المزعوم ، وذلك لما بين الوالد والولد من رابطة تقوم على الرحمة .

وهذا سرٌّ من أسرار التناسب في القرآن العظيم . والله أعلم .

قال الأصمعي : كنت أقرأ : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم) وبجنبي أعرابي فقال : كلامُ مَنْ هذا ؟

فقلت : كلامُ الله . قال : أعِد . فأعدت . فقال : ليس هذا كلامَ الله .

فانتبهت فقرأت : (والله عزيز حكيم) [111] .

فقال : أصبت .

فقلت : أتقرأ القرآن ؟ قال : لا . فقلت : من أين علمت ؟

فقال : يا هذا ، عزَّ فَحَكَمَ فقطعَ ، ولو غفرَ ورحمَ لما قطعَ .

أقول : يلاحظ أنك كلما أنعمت النظر في القرآن الكريم بقلب سليم ، وعقل رزين تفجرت لك درجات بلاغته من كل حرف .

فالقرآن عجيب النظم ، محكم البيان ؛ لأنه كلام العليم الحكيم .

وقد أسلمَ جماعةٌ عند سماع آيات منه . كما وقع لـ « جبير بن مطعم » - رضي الله عنه- أنه قال : سمعت النبيَّ ﷺ يقرأ في المغرب بالطُّور فلما بلغ هذه الآية (أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ❖ أم خَلَقُوا السماوات والأرضَ بل لا يوقنون ❖ أم عندهم خزائن ربك أم هُمُ المسيطرون) [112] : كاد قلبي أن يطيرَ [113].

سؤال أُوَجِّهُهُ إلى الدعاة : أمر طبيعي أن يتأثر بالقرآن عند تلاوته « جبير بن مطعم » العربي البليغ ، ولكن هل تأثر السامع بالقرآن أم بتلاوة النبي ﷺ للقرآن أم بهما معًا ؟!

أترك الإجابة لكم .

ثم بعد ذلك ما أجملَ تعقيبَ الآية الكريمة بقوله - تعالى - : (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) ! .

لما قال - تعالى - : (قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ) الآية نزَّه نفسه تنزيهًا تامًّا عما يصفون به من نسبة الولد إليه مبيناً أن رب السماوات والأرض ، ورب العرش جدير بالتنزيه عن الولد، وعن كل مالا يليق بكماله وجلاله .

وقد جاء مثله في آيات كثيرة .

كقوله تعالى : (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ) [114] .

وقوله تعالى : (سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً) [115] .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين

الهوامش

(1) (الزخرف : 81 ، 82) .

(2) « لسان العرب » لابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، 1374هـ (عبد 3 : 275) .

(3) في « الكشاف » للزمخشري ، تصوير بيروت . (3 : 427) .

(4) في « التحرير والتنوير » لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس (25 : 264).

(5) « أضواء البيان » لمحمد الأمين الشنقيطي ، 1403 هـ (7 : 288) .

(6) « جامع البيان » للطبري ، ت : د. عبد الله التركي ، هجر ، القاهرة ، 1422هـ (20 : 653) .

(7) « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1352هـ (16 : 104) .

(8) وقال « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب التفسير) (4819) : « أول العابدين أوّل المؤمنين .... أول العابدين ، أي : ما كان فأنا أول الآنفين ، وهما لغتان : رجلٌ عابدٌ وعَبِد .. ويقال : أول العابدين الجاحدين ، من عبِدَ يَعْبَدُ » انظر « فتح الباري » (8 : 568) .

(9) (الأحقاف : 15) .

(10) (لقمان : 14) .

(11) « تفسير مجاهد » ت: عبد الرحمن السورتي ، العلمية ، بيروت (2 : 584) و«جامع البيان» (20 : 653) و« تفسير ابن كثير » ت : سامي السلامة ، الرياض ، 1420 هـ (7: 242) .

(12) في « الصحاح » للجوهري ، ت : أحمد العطار ، القاهرة ، 1377 هـ (عبد 2 : 503) .

(13) انظر « الجامع لأحكام القرآن » (16 : 104 - 105) و « البحر المحيط » لأبي حيان ، السعادة ، 1328 هـ (8 : 28).

(14) في « الدر المصون » للسمين الحلبي، ت : د. أحمد الخراط ، دار القلم ، الأولى ، 1406هـ (9 : 608) .

(15) في « فتح القدير » للشوكاني ، تصوير دار عالم الكتب ، 1424 هـ (4 : 566) .

(16) « المحرر الوجيز » لابن عطية ، ت : عبد السلام عبد الشافي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1413 هـ (5 : 65- 66) و« تفسير العز بن عبد السلام » ت : د. عبد الله الوهيبي ، الأحساء ، 1415 هـ (3 : 163) .

(17) « تفسير مجاهد » (2 : 584) .

(18) قاله ابن الأعرابي . « الجامع لأحكام القرآن » (16 : 104) .

(19) انظر « جامع البيان » (20 : 653 – 658) و « المحرر الوجيز » (5 : 65 – 66) و« الجامع لأحكام القرآن » (16 : 104) .

(20) في « أضواء البيان » (7 : 288) .

(21) « الجامع لأحكام القرآن » (16 : 104- 105) .

(22) في « روح المعاني » للألوسي ، مصورة عن طبعة المنيرية » بمصر (25 : 104) بتصرف .

(23) وهذا مقتبس من « الكشاف » (3 : 426) .

(24) في « التحرير والتنوير » (25 : 264) .

(25) في « جامع البيان » (20 :657) . باختصار .

(26) (سبأ : 24) .

(27) في « الجامع لأحكام القرآن » (16 : 104 – 105) .

(28) في « روح المعاني » (25 : 104) .

(29) انظر « تفسير ابن كثير » (7 : 242) و« فتح الباري » لابن حجر ، السلفية ، القاهرة ، 1380 هـ (8 : 569) .

(30) في « المحرر الوجيز » (5 : 65 – 66) .

(31) انظر « الجامع لأحكام القرآن » (16 : 104) .

(32) في تفسيره (3 : 163) .

(33) انظر « مغني اللبيب » لابن هشام ، ت : د. مازن مبارك ، دمشق، 1384 هـ (34) وانظر « حاشية الدسوقي على المغني » دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1421 هـ (1 : 62) .

(34) في « أضواء البيان » (7 : 289 ، 290) .

(35) في « أضواء البيان » (7 : 289) باختصار .

(36) (يس : 29) .

(37) (الكهف : 4) .

(38) (مريم : 88- 89) .

(39) (الفرقان : 2) .

(40) (الصافات : 88 - 89) .

(41) انظر « أضواء البيان » (7 : 291) .

(42) انظر « أضواء البيان » (7 : 291) باختصار .

(43) انظر « أضواء البيان » (7 : 292 – 293) .

(44) (يونس : 95) .

(45) من « أضواء البيان » (7 : 299) .

(46) رواه قتادة بن دعامة مرسلاً . وفي «جامع البيان » (12 : 288) عن قتادة قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : (لا أشك ولا أسألُ) وفي الحاشية عزاه إلى : تفسير عبد الرزاق (1 : 298) عن معمر.

(47) في « الكشاف » (3 : 426) .

(48) في « أضواء البيان » (7 : 301 - 302) .

(49) في (7 : 302) .

(50) (الزمر : 4) .

(51) (الأنبياء : 17) .

(52) في « أضواء البيان » (7 : 304- 305) .

(53) انظر « البحر المحيط » (8 : 29) .

(54) في « أضواء البيان » (7 : 305) .

(55) قال « الألوسي » في « روح المعاني » (25 : 104) : « كان بمعنى صحَّ ، كما يقال : ما كان لك أن تفعل كذا . وهو أحد استعمالاتها » .

(56) في « الدر المصون » (9 : 608) .

(57) ذكره أبو حيان في « البحر المحيط » (8 : 29) وردّه .

(58) (2 : 284) .

(59) في « أضواء البيان » (7 : 306) .

(60) في « أضواء البيان » (7 : 307) .

(61) في « أضواء البيان » (7 : 309) .

(62) انظر « تفسير ابن كثير » (1 : 7) .

(63) « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الأنبياء) (3429) و « مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الإيمان) (124) من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - واللفظ للبخاري .

(64) (الأنعام : 82) .

(65) (لقمان : 13) .

(66) (الذاريات : 56) .

(67) في تفسيره (7 : 425) .

(68) في تفسيره (3 : 235) .

(69) في « روح المعاني » (27 : 21) .

(70) في « أضواء البيان » (7 : 672) .

(71) في « روح المعاني » (27 : 21) .

(72) (فاطر : 14) .

(73) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب الإيمان - باب قول النبي ﷺ : أنا أعلمكم بالله ، وأن المعرفة فعل القلب ؛ لقول الله - تعالى - : (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) (20) باللفظ المذكور . ومعنى قوله : (بما كسبت قلوبكم) بما استقر فيها ، فمدار الحقيقة على عمل القلب . وأما قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) فقال زيد بن أسلم : هو كقول الرجل : إن فعلت كذا فأنا كافر ، قال : لا يؤاخذه الله بذلك حتى يعقد به قلبه .

(74) وأخرجه « البخاري » أيضًا في « صحيحه » في (كتاب الأدب - باب مَنْ لم يواجهِ الناسَ بالعتاب) (6101) بلفظ : « فو الله إني لأعلمُهم بالله، وأشدُّهم له خشيةً » .

(75) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الفضائل - باب علمه ﷺ بالله - تعالى - وشدةِ خشيته) (2356) نحوَه من حديث « عائشة » رضي الله عنها .

(76) « فتح الباري » (1 : 70) .

(77) (النحل : 43) .

(78) (النحل : 43) .

(79) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب المغازي- باب بعث علي ..) (4351).

(80) و« مسلم » في « صحيحه » في (كتاب الزكاة) (1064) من حديث «أبي سعيد الخدري» - رضي الله عنه - . وفي « فتح الباري » (13 : 418) : (قوله مَنْ في السماء) أي : مَنْ على العرش فوق السماء.كما صحت الأخبار بذلك .

(81) (الحشر : 7) .

(82) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب التوحيد) (7378) .

(83) وانظر « فتح الباري » (13 : 360) .

(84) (الكهف : 4- 5) .

(85) (الكهف : 5) .

(86) (البقرة : 282) .

(87) (يونس : 68) .

(88) ملخص من « أضواء البيان » (7 : 295) .

(89) نسبه ابن القيم في « مفتاح دار السعادة » لابن القيم ، طبع مصر (2 : 507) إلى عمر في صهيب - رضي الله عنهما - .

(90) ملخص من « أضواء البيان » (4 : 149) .

(91) (الكهف : 57) .

(92) (الكهف : 109) .

(93) انظر « آداب البحث والمناظرة » لمحمد الأمين الشنقيطي (1 : 50) .

(94) انظر« البرهان في علوم القرآن » للزركشي ، ت : محمد أبو الفضل إبراهيم، تصوير دار الفكر، 1400 هـ (3 : 104) .

(95) في « مغني اللبيب » (33) .

(96) (الملك : 20) .

(97) (المجادلة : 2) .

(98) (النساء : 159) .

(99) (التوبة : 107) .

(100) (النساء : 117) .

(101) (الإسراء : 52) .

(102) (الكهف : 5) .

(103) ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر، ووافقهم الحسن والأعمش. و(لمَا) بالتخفيف الباقون.

(104) (الطارق : 4) .

(105) (مردودٌ) خبر (قولُ بعضهم) .

(106) (يونس : 68) .

(107) (الجن : 25) .

(108) (الأنبياء : 111) .

(109) (الزخرف : 81) .

(110) في « حاشيته على أنوار التنزيل للبيضاوي » للبيضاوي ، إستانبول (3 : 306) .

(111) في «شرح الكافية» للرضي، ت : د.حسن الحفظي.جامعة الإمام، 1414هـ القسم الثاني(765) .

(112) في « شرح الكافية » القسم الثاني (771) .

(113) في « الاشتقاق » لعبد الله أمين ، لجنة التأليف ، القاهرة ، 1376 هـ (271) .

(114) انظر « شرح الشافية » للرضي (2 : 340) .

(115) في « شرح الكافية » القسم الثاني (782) .

(116) (المائدة : 38) .

(117) (الطور : 35 - 37) .

(118) أخرجه « البخاري » في « صحيحه » في (كتاب التفسير - سورة الطور) (4854) .

(119) (المؤمنون : 91) .

(120) (النساء : 171) . « أضواء البيان » (7 : 310) .